تشـريع الأذان

تشريع الأذان

قال عبد الله بن زيد :

لما أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة طاف بى وأنا نائم رجلٌ يحمل ناقوساً فى يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟

قال:وما تصنع به؟فقلت:ندعو به إلى الصلاة،قال:أفلا أدلك على ماهو خير من ذلك؟

فقلت له: بلى، قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله ....(حتى آخر جمل الأذان المعروفة)

قال : ثم استأخر عنى غير بعيد ، ثم قال : وتقول إذا أقمت الصلاة : الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلاّ الله .

فلما أصبحت أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبرته بما رأيت ، فقال: "إنها لرؤيا حق،إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذنّ به، فإنه أندى صوتاً منك".

فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ما رأيت فيؤذن به ، قال: فسمع بذلك عمر بن الخطاب، وهو فى بيته، فخرج يجّر رداءه، ويقول :

والذى بعثك بالحق يا رسول الله ؛ لقد رأيت مثل ما رأى ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "فللّه الحمد " . (حديث صحيح ، أخرجه أحمد ٤/٤٣، وآخرون)

....

هذه قصة تشريع الأذان يحكيها عبد الله بن زيد، رضوان الله عليه، تكشف عن حدث جرى فى الحلم شاهده وهو نائم ، ويقوم على حوار جرى بينه وبين الطيف أو الخيال الذى يجىء فى المنام ويراه النائم ، ثم ينتقل هذا الحوار إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – ويسمع به عمر ، فيؤكّد للرسول -صلى الله عليه وسلم- الذى يحمد الله على هذه الرؤيا الحق التى أراحت المسلمين من عناء البحث عن وسيلة تجمعهم للصلاة، ووحدتهم حول صيغة الأذان المعروفة، واشتقت منه صيغة الإقامة للصلاة .

تتدرج أحداث القصة برصد الواقع الذى كان قائماً قبل تشريع الأذان. حيث كان الرسول-صلى الله عليه وسلم- قد أمر أصحابه أن يُعلموا الناس بموعد دخول الصلاة والتجمع لها وإقامتها عن طريق ضرب الناقوس أو الجرس الذى يحدث صلصلة يسمعها الناس .

بيد أن عبد الله بن زيد يرى فى منامه طيفاً أوخيالاً يخبره بطريقة أفضل من طريقة ضرب الناقوس أوالجرس،وهى طريقة الأذان المعروفة الآن،ويأخذ منها طريقة إقامة الصلاة أيضاً.

وفى الصباح يسارع عبد الله بن زيد ليخبر النبى – صلى الله عليه وسلم – بما رأى فيؤكد له أنها رؤيا حق إن شاء الله ، ويأمره أن يلقى ما رأى وسمع على بلال رضى الله عنه ليؤذنّ به لنداوة صوته وطراوته وحلاوته ..

ثم تكون المفاجـــأة أن يخرج عمر –رضى الله عنه– يجّر رداءه، ويذهب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– ويقسم له أنه رأى وسمع ، ما رآه عبد الله بن زيد وسمعه ... فيحمد رسول الله ربّه على ما كان .

إن قضيّة الأذان فى التشريع الإسلامى، تتجاوز مجرد الإعلام عن دخول الوقت إلى رمز عظيم من رموز العزّة الإسلامية ونصر من الله لعباده المؤمنين الذين دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وصاروا يؤدون فرائضهم ونوافلهم فى حرية وطلاقة ، ويعبرّون عن عقيدتهم وشريعتهم فى ظل العزة والكرامة..فقد كانوا فى مكة يصلون فى سرّية، يمارسون إيمانهم فى كتمان، أما اليوم، وقد صاروا فى المدينة أصحاب كيان ومقام ، فلابد من الإعلان عن شعيرة من أهم شعائر الدين وهى الصلاة ، وهذا الإعلان يشير فى طياته إلى وحدة المسلمين وتضامنهم وتجمعهم على غاية واحدة ، وحين ينطلق صوت المؤذن فى أية صلاة من الصلوات الخمس ، يترك المسلمون أعمالهم أو نومهم أو ما يشغلهم بصفة عامة ، وينصرفون إلى المساجد أو أماكن الصلاة ...يتوضأون ويؤدون النوافل وينتظرون إقامة الصلاة وفى الصلاة ذِكْرٌ ومعايشة للطاعة والتفكير والتدبّر.

لقد صارت الوسائل التى تساعد على معرفة مواقيت الصلاة كثيرة منها الساعة والهاتف المحمول والتلفزة والإذاعة وآلات أخرى عديدة لها خصائص الإشارة إلى حلول موعد الصلاة، ولكن هذه الآلات وتلك الوسائل لا تغنى عن الأذان ورفعه فى الأمصار أى المدن والقرى والمناطق المختلفة، تعبيراً عن تشريع يجمع المسلمين على كلمة الله وشعيرة تربط بينهم برباط الأخوة والتقوى .

إن الساعة وما يشبهها مجرد وسائل مساعدة فى زمننا الحديث للتعرّف على الوقت، وهى وسائل شخصية أكثر منها جماعية ، لا تغنى عن الإعلان عن دخول الوقت من

خلال الأذان،حيث يرتفع صوت المؤذن،يسمعه أهل المكان صغيراً أو كبيراً فيجتمعون لأداء الصلاة.

إن الأذان واجب كما قرر الفقهاء ، لا يجوز الاستغناء عنه أو الاكتفاء بأذان الإذاعة أو التلفزة وخاصة مع اتساع الأمكنة ، وتفاوت المواقيت أو المواعيد .

وإذا عدنا إلى شخصيات القصة نجد أن أولها هو عبد الله بن زيد – رضى الله عنه – الذى رؤى القصة ونقل أحداثها، وهو صحابى جليل تشغله قضية الإسلام وما يتعلق بها، ومنها موضوع إعلام المسلمين بموعد دخول وقت الصلاة..ويبدو أن مسألة الناقوس أوالجرس الذى أمر النبى – صلى الله عليه وسلم – بضربه أو دقة حتى يعلم المسلمون بدخول الوقت ، كانت تشغل الرجل ، ويبدو أيضاً أن بعض المسلمين –ومنهم عبد الله – كان غير مستريح إلى هذه الطريقة ، ولهذا فإن رؤيته المنامية ، كانت لبنة فى التشريع ووصفها النبى – صلى الله عليه وسلم – برؤيا حق ..أى رؤيا ثابتة وصادقة ومطابقة للوحى أو مطابقة للاجتهاد .

وعبد الله بن زيد ، وفقاً لهذا التوصيف هو الذى قام بتلقينها لبلال رضى الله عنه كى يؤذن بها ويعلن عن دخول الصلاة .

إن عبد الله محب لدينه، حريص عليه، مشغول به، مخلص له،ولذا أكرمه الله بالرؤيا الصادقة التى طابقت الوحى أو طابقت الاجتهاد .

الشخصية الثانية فى القصة هى شخصية الطيف، الذى رآه عبد الله فى المنام. وهذه الشخصية هى التى نقلت إليه صيغتى الأذان و الإقامة المعروفتين ...فهى إلهام جاء ليقدم فكرة جديدة يقرّها النبى – صلى الله عليه وسلم – ويؤكدها برؤية مماثلة رآها عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

الشخصية الثالثة هى شخصية بلال بن رباح رضى الله عنه ، وهو فى الواقع الإسلامى فى صدر الدعوة أو فى مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم – يمثّل نموذجاً رفيعاً للإيمان ، ومقاومة الظلم الذى مارسه المشركون فى مكة ضد المسلمين عامة، وضدّه خاصّة ؛ فقد أوشك على الموت من شدّة التعذيب ليترك الإسلام ويعود إلى الوثنية، ولكنه ظل ثابتا على إيمانه ، حتى اشتراه أبو بكر ، رضى الله عنه ، وأعتقه . بلال له فى واقع المسلمين فى صدر الإسلام دور عظيم يضيق المجال عن تناوله ، ولكن الذى يعنينا هنا هو تميزه بندوة الصوت وطراوته وحلاوته ، ولذا يرى الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه أندى صوتاً من عبد الله بن زيد ، مع أن عبد الله بن زيد هو الذى رأى الرؤيا المنامية ، وهو الذى نقلها إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – ولكن ذلك لا يشفع له كى يؤذّن ...فالذى ينبغى أن يؤذن هو

الأندى صوتاً، أى الأحلى والأجمل صوتاً، فالأصوات الخشنة والجافة والمزعجة غير مرغوبة فى هذا المجال. إن فلسفة الجمال فى الإسلام تؤكد على التأصيل لكل ما يتناغم مع الطبيعة والفطرة ويحقّق المتعة الراقية ، والصوت الندّى يُشيع الجمال والبهجة فى نفوس المستمعين مسلمين أو غير مسلمين .

وقد استنكر الإسلام الصوت الأجش العالى الكريه ، وفى وصايا لقمان لابنه تعبير عن كراهية علوّ الصوت واستهجان أصوات الحمير التى تمثل الخشونة والقبح :

"...وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ" (سورة لقمان من الآية١٩)

ومن المؤسف أن بعض الناس يتصور أن الخشونة والغلظة هى المطلوب شرعاً، وهذا تصوّر خاطىء يدحضه توجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – لعبد الله بن زيد ، بقوله عن بلال " فإنه أندى صوتاً منك " وأندى صوتا : أى أرقّ صوتاً ، وأحسن تعبيراً ، والندى يُعّبرَ به عن السخاء والكرم أيضاً .

أما شخصية عمر رضى الله عنه ، فهى أشهر من أن تعرّف، ولكنها فى سياق القصة النبوية التى بين أيدينا تضيف إلى عمر واهتمامه بقضايا التشريع إضافة جديدة ، فهو الذى تمنى أن ينزل الله بياناً فى استئذان الأبناء ومن فى حكمهم على الآباء والأمهات، فنزلت آيات الاستئذان فى سورة النور، وهو الذى تمنى أن ينزل الله حكماً فى الخمر، فنزلت آيات سورة المائدة التى تحرّم الخمر تحريماً قاطعاً ، وهو هنا يرى الرؤيا المنامية نفسها التى رآها عبد الله بن زيد ، مما جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- يحمد الله على هذا التوافق العظيم بين الرجلين فى قضية الأذان .

إن القصة تكشف لنا عن جانب مهم من جوانب التشريع الإسلامى، حيث يأتى استجابة لحاجات الناس ، ويتوافق مع طبيعتهم وفطرتهم ، وقد تمثل ذلك فى مسألة الأذان الذى يعد شعيرة من أهم شعائر الإسلام ؛ تعبيراً عن وجود ، وبياناً لفريضة، وجمعاً للأمة على قلب واحد ، وخضوعاً لرب العالمين .

إن ألفاظ الأذان والإقامة تحمل من الدلالات والمعانى ما يجعل المسلم الحقيقى يهّز الجبال ، إيماناً بقدرة الخالق الواحد الأحد ، وحبّاً للنبى – صلى الله عليه وسلم – وإخلاصاً فى العبادة والعمل ، ورغبة فى الجهاد والكفاح لنصرة الدين والمؤمنين ...لذا فإن ترديد هذه الألفاظ على مدار اليوم والليلة تذكير بعظمة الله واستدعاء لهّمة المسلمين وسعى مستمّر لتوحيدهم تحت راية لا إله إلا الله .